آثار الشهباء والفيحاء (١)

« ومدرسة ضيفة خاتون »

تنقسم مصانع الشام الى قسمين مدني ودبني ، فالمدني القلاع والحصون والابراج والمناور والمراصد والقصور والجسور والسكور والاقنية والموانى والطرق والقبور والمستشفيات ودور الزمني والضيافة ، والدبني المعابد والبيع والاديار والكنائس والجوامع والمساجد والمدارس والرُبُط والخانقاهات والملاجئ وما شاكلها . والكلام على كل مادة من هذه المواد يحتاج الى محاضرة بل محاضرات ولذلك نقصر حديثنا الآن على المدارس ونقابل بين ماقام من نوعها في هذه المدينة الطيبة وبين مافي دمشق الفيحاء منها .

انشأ العرب لما حكموا الشام مصانع كثيرة وكان بنوغسان يتبارون في البيع وزيها أقاموا منها كثيراً كما عمروا الاديار والصروح والقناطر ، وكذلك فعل النبط والتنوخيون ، وكلهم عرب ايضاً . والغالب ان هندستهم كانت ابنة الهندسة الرومانية . واليونانية تختلف عنها قليلاً في بعض الرسوم والتفاصيل . ولما فتح العرب المسلمون هذا القطر لم يكن لهم هندسة خاصة .

وكان الأمويون اذا أرادوا إقامة بناء عظيم تقدم مملكة بيزنطية الصناع والرسوم التي يراد النقل عنها ، فقد جمع الوليد لما أراد بناء الجامع الأموي لبنائه حذاق فارس والهند والمغرب والروم فجاء البناء من صنع بنائين مختلفين اجمل مافي الهند وفارس وآثينة ورومية من طرز البناء وأخذ ربع أعطيات أهل دمشق تسع سنين وكانوا خمسة واربعين الفاً ليستعين بها على عمارة الجامع وأنفق فيه خراج الشام سنتين وفي رواية اربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار وكان خراج الشام على عهد بني أمية الف الف دينار ومائتي الف دينار .

قال المقدسي : والجامع جامع دمشق أحسن شيء للمسلمين اليوم (في القرن الرابع) ولا يعلم لهم مال مجتمع اكثر منه وأعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزع كل شامة الى اختها،

(١) من محاضرة للسيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي ألقاها في المدرسة الفاروقية بحلب في ربيع ١٣٤١ هـ (١٩٢٣) م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولوان رجلاً من اهل الحكمة اختلف اليه سنة لأفاد كل يوم صنعة . وقال ايضاً : رأى الوليد الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها ببعاً حسنة قد أفتن زخارفها وانتشر ذكرها ، كالقمامة وبيعة لد والرها ، فاتخذ للمسلمين مسجداً في دمشق شغلهم به عنهن وجعله احدى عجائب الدنيا ، او كما قال الخليفة المأمون بني على غير مثال شوهد .

قال الثعالبي : كان الأغلب على الوليد بن عبدالملك حب البناء واتخاذ المصانع واعتقاد الضياع وكان الناس في ايامه يخوضون في وصف الابنية ويحرصون على التشييد والتأسيس ويولعون بالضياع والعمارات . وقال آخر : كان الوليد عند اهل الشام محبوباً لانه صاحب عمارة وبناء ، عمر الضياع ووضع المنار في الطرقات واعطى المجذمين وافردهم وقال لا تسألوا الناس وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً .

فالعرب اذاً أخذوا اولاً الهندسة عن الفرس والبيزنطيين وغيرهم من الامم التي كانت لها حضارة جميلة وجودوها وزادوا عليها . قال ستنيوبوس : لم يكن للعرب كما للرومان صناعات وطنية خاصة بهم ، فكانوا اذا احتاجوا الى قصور او جوامع يعمرونها اولاً على الطرز الفارسي او البيزنطي مثل جامع دمشق ، ولكن مالبثت الصناعات الفارسية والبيزنطية ان اختلطت ونشأ منها صناعة جديدة هي الصناعة العربية وأجمل هذه الصناعات الجوامع والقصور .

وليس لدينا من مصانع الامويين في الشام غير هندسة الجامع الاموي وبعض محال من المسجد الاقصى على كثرة ماشادوا من الجوامع والقصور والحصون والمدن لان العباسيين لما استولوا على هذه الديار نقضوا آثار الامويين كلها ولم يبقوا على غير جامع دمشق وجامع القدس ، قال الجاحظ من شأن الملوك ان يطمسوا على آثار من قبلهم وان يميتوا ذكر اعدائهم فقد هدموا بذلك السبب المدن وأكثر الحصون كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية وعلى ذلك هم في الاسلام كما هدم عثمان صومعة غمدان وكما هدم الآطام (الحصون) التي كانت بالمدينة وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر وكما هدم أصحابنا اي العباسيون بناء مدن الشامات (اي الشام) .

تجلت الهندسة العربية في هذه الديار في القرن الرابع فما بعده على الاغلب ونشأ لها مهندسون سوريون عرب انتهت الينا بعض اسمائهم وبعض نموذجات من أبنيتهم ولاسيما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المدارس ولم تكن المدارس معروفة في هذا الديار قبل نورالدين محمود بن زنكي بقليل فانه شاد منها جملة صالحة وهو اول من أسس دور الحديث والقرآن والفقه وأول من بنى دار العدل في دمشق لكشف الظلامات وبنى الخوانق والرُبط وقد مشى على اثره في هذا الطريق المحمود صلاح الدين يوسف بن ايوب وآل بيته الكرام وما من عين من أعيانهم الا وله في دمشق وحلب وحماة والقدس وغزة وبعلبك ومنبج والمعرة مدارس أبقت الايام على بعضها نموذجاً من حسن الهندسة وارتقائها في تلك العصور ومثالاً ينم عن ارادة الخير والتدين الحقيقي ٠

ذكروا ان البلاد قبل نورالدين كانت خالية من العلم واهله فصارت في ايامه مقر العلماء والفقهاء والصوفية لصرف همته الى المدارس والربط وترتيبه امورهم وقصده العلماء من خراسان وغيره وكان يكرم الصوفية والفقهاء والعلماء ٠

ولم تسعد هذه الديار بعد عهد قليل من خلفاء الامويين والعباسيين سعادة حقيقية مثل سعادتها على عهد الدولتين النورية والصلاحية فمعظم مانراه من المصانع هو من صنعهم وصنع أمرائهم بل خدامهم وعتقائهم ٠ ولما انقضت الدولة الايوبية تراجع عمران هذه الديار تراجعاً محسوساً وعاشت قرنين وثلاثة بفضل تلك الحسنات وبقوة التسلسل المنبعثة من ذاك الفضل الشامل والعقل الكامل ٠

* * *

زرتُ بالامس في جملة مازرته من مدارس الشهباء القديمة مدرسة أخذطرز بنائها بمجامع النفس وذكرها ماضياً باهراً لهذه الامة ، والماضي قد يفرح ويحزن ٠ تفرح به اذا كان جليلاً وتنقبض اذاناظرت بينه وبين الحاضر ، خصوصاً اذا كان هذا ضئيلا ٠ رأيت مايدهش من مدرسة الفردوس التي أنشأتها الملكة ضيفة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين ابي بكر محمد بن ايوب وكانت جعلتها تربة ومدرسة ورباطاً ورتبت فيها خلقاً من القراء والفقهاء والصوفية ٠ وضيفة خاتون ولدتها امها في غير دار ابيها حيث كانت امها ضيفة فسماها ابوها ضيفة ، توفيت سنة ٦٤٠ هـ ودفنت بقلعة حلب وولدها مدفون بها ايضاً ، مات ابنها فتولت زمام الحكم في حلب وتصرفت فيها تصرف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

السلاطين ست سنين فأبانت عن ذكاء وجودة رأي ، وان النساء اذا تعلمن لا يصعب عليهن ان يبلغن مبلغ الرجال ، وقل ان حدث في تاريخ هذه البلاد ان تولت امرأة امور الدولة وأحسنت السياسة ، ولا نذكر الآن في مصر غير شجرة الدر المشهورة التي ساست الملك فأحسنت سياسته في الجملة . واما ملكة حلب صاحبة هذا الاثر النفيس فكانت متينة في سياستها أثنى عليها معاصروها ، و يرجع الفضل في ذلك الى من كانوا المشاورين لها من فضلاء اهل حلب اذ ذاك ، ولا عجب فقد قامت في هذه المدينة غير مرة مشيخة من اهلها اي جمهورية في القرون الوسطى لاحوال اقتضت ذلك من تخالف بين اهل السلطان اولموت ملكها اوامیرها فكانت الامور تسير بالشورى على سداد . ومن ذلك ان دولة بني مرداس بحلب لما انتقضت عادت رياستها شورى في مشيختها وطاعتهم لمسلم بن قريش صاحب الموصل وكان ذلك سنة ٤٧٢ فأدار شؤونها الداخلية رجال منهم فأحسنوا السياسة وأمنت قواعد العدل واستقر الامن في نصابه .

قرأت في حائط مدرسة الفردوس هذا : (بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أنشأته ذات الستر الرفيع والحجاب المنيع عصمة الدنيا والدين ضيفة خاتون بنت السلطان الملك العادل والدة السلطان الملك العزيز بن الملك الظاهر في ايام مولانا السلطان الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب ناصر امير المؤمنين خلد الله ملكه) . وقد كتب على محرابها البديع (عمل حسان بن عفان) والغالب ان مهندس البناء شخص آخر عمره مثالاً جميلاً من عمل صنع الايدي وهو يشبه بعض المدارس الكبرى في عهد الدولة الايوبية في دمشق كالمدرسة العادلية التي جعلت اليوم دار المجمع العلمي العربي وفيها متحفه وهي مثال الهندسة العربية بواجهتها ، بناها العادل ابوبكر بن ايوب هذا البناء المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس كما في الروضتين . ومدرسة الفردوس على ما تحيفها من الخراب ، وما أُدخل فيها و بجانبها من البناء الذي عوِر به البناء الاصلي البديع ، تحتاج لقليل من العناية حتى تعود الى ما كانت عليه تذكرنا بعهد الاجداد وفضلهم علينا ، بما خلفوه لنا ولم نحسن استعماله والاحتفاظ به . وهي كما تعلمون في باب المقام ، وهناك مدارس وربط وتُرب دفن فيها أعاظم علماء الامة من المحدثين والفقهاء والمؤرخين والادباء في بسيط من الارض اذا تعهد يصبح حديقة غناء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبقربها مدفن آل الشحنة مؤرخي حلب وفقائها ، وهي الأسرة التي تسلسل فيها العلم عدة بطون كما تسلسل في القرن السادس والسابع العلم والقضاء في بيت بني العديم الحلبيين خمسة بطون ونعمت البيوت . قال ياقوت : ولاهل حلب عناية باصلاح أنفسهم وتثمير الاموال فقلما ترى من ناشئتها من لم ينقيل أخلاق آبائه في ذلك ، فلذلك كان فيها بيوتات قديمة معروفة بالثروة يتوارثونها و يحافظون على قديمهم بخلاف سائر البلدان . قال هذا اوائل القرن السابع ولا يزال الى اليوم أثره ظاهراً ولو على ضعف .

بنيت اول مدرسة في حلب سنة ٥١٧ هـ وهي المدرسة الزجاجية أنشأها بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب ولما أراد بناءها لم يمكنه الحلبيون من ذلك اذ كان الغالب عليهم التشيع فكان جماعته يبنون في النهار والشيعة تنقض مابنوه في الليل . وكان التشيع مستحكماً في الحلبيين فقضى عليه صلاح الدين وأسرته قضاءه عليه في مصر بقرض الدولة الفاطمية اوالعبيدية . وقد ذكر المؤرخون ان الدولة الفاطمية أهلكت نحو اربعة آلاف عالم من علماء المالكية مدة قرنين وقد اصاب الشام بالطبع ان صحت الرواية قسطها من هؤلاء المقتولين لتشددهم في التسنن . قال ابن خلكان ان حلب كانت قبل ان يتصل ابن شداد بخدمة الملك الظاهر قليلة المدارس وليس بها من العلماء الا نفر يسير ، فأعنى بترتيب امورها وجمع الفقهاء بها وعمرت في ايامه المدارس الكثيرة . والزجاجية هذه توارت مشيختها ومشيخة العادلية فاطمة بنت قريمزان المتوفاة سنة ٩٦٦ هـ انتهت اليها رياسة اهل زمانها بحلب أخذت العلم عن زوجها وهي أشبه بعائشة الباعونية في هذا القرن ايضاً بدمشق التي زينت الشام بل جملت اهل الاسلام بعلمها وأدبها .

ومن مدارس حلب النورية والمصرونية والصاحبية والظاهرية المعروفة بالسلطانية والاسدية والشعيبية والشرفية والرواحية والبدرية والزيدية والقوامية والشادبخنيه أنشأها الامير جمال الدين شادبخت نائب نورالدين محمود بحلب وولي تدريسها كمال الدين بن العديم سنة ٦١٦ وكانت حلب يومئذ أعمر ما كانت بالعلماء والمشايخ والفضلاء الرواسخ كما قال ابن شداد . وقد كانوا في القرن الذي قبله احصوا فقهاء دمشق فكانوا ستمائة فقيه ، وكان صلاح الدين رحمه الله يطلق لعلماء دولته في السنة ثلاثمائة الف دينار عدا الهبات والعطايا والاقطاعات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن مدارس حلب المروية والبلدقية والقيمرية والحلاوية والاتابكيـة والحدادية والجردكية والمقدمية والجاولية والطومانية والحسامية والخسروية والعثمانية والقليجيـة والفطيمية والمجدية والكلتاوية والالجائيـة والكينوشية او الكهنبوشية والكاملية والشبكية والورمشية والسفاحية والدلغادرية والصهيبية وهذه كانت وراء باب انطاكية مباشرة قامت على انقاض اقدم جامع في حلب بناه ابو عبيدة قال سوبرنهيم الاثري ان النقوش الكثيرة والهندسة القديمة والكتابات الكوفية الموجودة في هذا الباب تجعله في الدرجة الاولى من المكانة ومنه يدرس التحول التام المجهول سره حتى الآن الذي تم على عهد نور الدين في أسلوب الهندسة وفي صور الكتابة والطرز السياسي في الكتابات ٠

ومن مدارس حلب الاسعردية ومدرسة النقيب والدقاقية والجمالية والعلائيـة والكمالية العديمية والاتابكية والسيفية ٠ هذا ما كان فيها من مدارس الشافعيـة والحنفية وذاك عدا مدارس المالكية والحنابلة وهي قليلة وليس في تاريخ حلب ما يدل على انه كان فيها كما في دمشق دور للقرآن والحديث خاصة بل فيها دار القرآن الحبشية فقط ٠ وذكر الرحالة ابن جبير في المئة السادسة انه كان يتصل من الجانب الغربي من جامع حلب مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً واتقان صنعة فهما في الحسن روضة تجاور أخرى ٠ قال وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ، وقال ان للبلدة سوى هذه المدرسة نحواً من اربع مدارس او خمس ٠

قال السابق ابو اليمن المعري

حلب معهد الصبا والتصابي فسقاها الوسمي ثم الوليُّ
موطني بعد موطني فكأني لغرامي بحبهـا البحتريّ

الى ان قال في مدارسها

فلديهـا كل الفنون وفيها ما اشتهاه الشرعي والفلسفي
غير اني ارى الاطايب شزرا وحليف الافلاس عنها قصيّ

وفي تقويم سنة ١٣٣٣ ان عدد مدارس الشهباء كان ثنتين وثلاثين مدرسة وما نظن العامر منهـا الآن بعض الشيء يتجاوز العشرين مدرسة خربت في اوقات مختلفة ولاسيما في فتنة تيمورلنك سنة ٨٠٣ ثم في القرون التالية بالفتن وتغير الدول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والحكام وتوالي الزلازل وغفلة القائمين على اوقافها وعسى ان يعود الى هذه الدور البديعة رونقها القديم بعناية ادارة الاوقاف التي نعنى الآن باحياء الآثار وتكثير مغل الوقف ، وان هذه المدارس بل كبرياتها اذا رممت وعولجت بالاصلاح ونفذت ارادة واقفيها يصبح مجموعها أعظم جامعة اسلامية كما هو الشأن في جامعتي اكسفورد وكمبردج في بلاد الانكليز من أعظم جامعات المذهب الانجيلي وكانت من قبل مدارس من مثل هذه مفرقة بنيت في عصور مختلفة فأصبحت الآن جامعات يفاخر بها وفيها يتخرج رجال الانكليز في العلوم المختلفة .

* * *

حلب اخت دمشق في جميع أدوار تاريخنا ، وهما متشابهتان من وجوه كثيرة في مرافقها ومدارسها وعمرانها ، والمدارس كانت في دمشق على حصة موفورة لانها كانت عاصمة الدولتين النورية والصلاحية ، وقد كانت في القرن السادس على رواية ابن جبير اكثر مدن الارض سكاناً وكانت في القرن الثامن كما قال ابن تغري بردي أجمل مدينة في العالم بل اغنى مدينة ، أحرق تيمورلنك بعض مدارسها وجوامعها وغرّمها عشرة ملايين دينار وحمل معه المهندسين والبنائين والنقاشين في جملة من حمل من ارباب الصنائع الى سمرقند كما فعل السلطان سليم العثماني في مصر لما فتحها في الربع الاول من القرن العاشر فحمل الى القسطنطينية كل صاحب صنعة وعمل نافع وجردها من بدائعها وصناعاتها النفيسة .

كان في دمشق في القرن التاسع مئة حمام وحمام والف مسجد وجامع في المدينة والضاحية وقد ذكر النعيمي في كتاب الدارس من المدارس انه كان فيها سنة ٩٢٧ هـ — ٣٢٠ مدرسة للشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة ودار قرآن وحديث ورباط وخانقاه ومستشفى واربع مدارس للطب ومدرسة هندسة أنشأها نجم الدين اللبودي من اهل القرن السادس ولكل مدرسة خزانة كتبها ومدرسوها في الفنون المختلفة وكانت الطبيعيات والرياضيات والفلك والادب تدرس في حُجَرها من غير نكير . دام هذا الى القرن العاشر فأخذت بالانحطاط ولم يبق منها في اوائل هذا القرن سوى بضع مدارس تُلحقها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالعامرات من باب النجوز صبرت كما قال عبداللطيف البغدادي في الاهرام على ممر الازمان بل على ممرها صبر الزمان فانك اذا تبحرتها وجدت الاذهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها ، والانفس المنيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها ، والملكات الهندسية قد أخرجتها الى الفعل مثلاً هي غاية امكانها ، حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم واذهانهم وتترجم عن سيرهم واخبارهم .

صبرت هذه المدارس على نوائب الدهر لانها كالقلاع بضخامة بنيانها صرفت عليها الاموال الطائلة اكثر مما نتصور بكثير .

لا جرم ان بلاد الشام كانت عامرة في القرنين السادس والسابع اكثر من كل قرن على ما كان ناشباً من الحرب الطاحنة بين سكان البلاد والصليبيين . وكثير من آثار العمران ظهرت اذذاك على غير مثال ، ولا غرو بعد هذا ان قال في دمشق ابو الفضل ابن منقذ الكناني يوم كان لها القدح المعلى في العمائر :

واذا مررت على المنازل معرضاً ... عنها قضى لك حسنها ان تقبلا
ان كنت لا تستطيع ان تتمثل الفـ ... ـردوس فانظرها تكن متمثلا
واذا عنان اللحظ اطلقه الفتى ... لم يلق الا جنة او جدولا
او روضة او غيضة او قبة ... او بركة او ربوة او هيكلا
او وادياً او ناديا او ملعباً ... او مذنباً او مجدلا او موئلا
او شارعاً يزهو بربع قد غدا ... فيه الرخام مجزعاً ومفصلا

ولقد وصف شيخ الربوة من القرن الثامن حلب فقال انها كانت على عهد العباسيين تضاهي بعظمتها بغداد والموصل وانه استولى عليها الخراب بايدي التتار وان اهلها يتنافسون في الملابس والهيئات والمراكب والمنازل وقال غيره ان حلب بلد تليق بالخلافة .

ولقد برع مهندسو العرب في هذه الديار في علم عقود الابنية وهي ما يتعرف منه احوال اوضاع الابنية وكيفية شق الانهار وتقنية القني وسد البثوق وتنضيد المساكن ولو لم يبرعوا في كيفية ايجاد الآلات الثقيلة لنقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة لما تمكنوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من عمارة المدن والقلاع والمنازل والجوامع والمدارس هـذا التمكن الذي تبهرنا بقاياه الضئيلة ولو كان مؤلفو التراجم يعنون باخبار المهندسين والفلكيين والرياضيين مثـلاً عنايتهم بالتقاط اخبـار الشعراء والمتأدبين والمتزهدين لجاءتنـا منهم سلسلة طويلة ولعلمنا من اساليب تفننهم وعلومهم الشيء الكثير . ولم نطلع من هذا القبيل على اكثر من عشرة مهندسين مسلمين في قرون العمران في حلب ودمشق وضاعت تراجم الاكثر ومنهم من ظفرنا باسمائهم مزبورة على بعض المدارس في هذه الحاضرة وغيرها من مدن الشام .

ان الارتقاء الذي بلغه المهندسون في الاسلام عندنا يدهش كل مفكر وقديماً كان السوريون على عهد الفراعنة والحثيين يعتقدون ان بعض مدن ساحل الشام بناها الارباب والآلهة ثم اصبحوا يعتقدون اذا رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانيه انه من بناء سليمان او اضافوه الى الجن وقد قال البحتري في ايوان كسرى :

ليس يدري اصنع انس لجن سكنوه ام صنع جن لانس

وقال شيخنا ابو العلاء المعري :

وقد كان ارباب الفصاحة كلما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

اما نحن فنضيف كل بناء الى صانعه وهو مثلنا وبطولنا وحجمنا وعقلنا لكنه رزق حظاً من العلم وشدا شيئاً من ادب النفس وانفق صاحبه على بنائه عن سعة فجاء مثال الحسن والابداع .

من تأمل مدارس ارباب الخير من المسلمين في الشهباء والفيحاء وقرأ ما كتب عليها بتأمل وزارها المرة بعد المرة على تغير في معالمها ، وتشويه طرأ على محاسنها ، وفساد عرا اذواق الابناء والاحفاد اذا قيس الى مجد الاجداد ، وجعل نسبة بين عدد ما عمر منها وما بقي في البلدتين الشقيقتين ، يؤكد معنا ان الفساد استحوذ عليها في دمشق اكثر من حلب وان من تجردوا من الوجدان ناستحلوا استصفاء تلك المدارس كانوا في الفيحاء اكثر من امثالهم في الشهباء ، ولذلك كان عدد الباقي هنا اكثر واجود من حيث الكمية والكيفية من المدارس هناك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا ينكر ان مادة البناء قد تختلف في بلد عن آخر وقد كان الاعتماد في تلك القرون على الحجر الصلد ، وفي دمشق عدة مقالع جميلة منوعة منه كما في حلب ، ولم يكثر الآجر والطوب والخشب الا في القرون الحديثة ولذلك لم تخرب المدارس الدمشقية لعدم متانة في بنائها فان الامثلة الظاهرة منها الى اليوم لا تجعلها تختلف في شيء عن مدارس حلب ، ولكن القائمين على هذه المدارس في هذه المدينة كانوا يعتدلون في العبث بها ومتانة الاخلاق من جملة ما امتاز به الحلبيون لجودة هوائهم يضاف اليها حب الاحتفاظ بتراث الاجداد على صورة كانت ظاهرة في قرون الارتقاء ، كامنة في عصور الشقاء والرجوع الى الوراء .

والناظر الى مدارس دمشق وحلب وهي لا تقل عن اربعمائة مدرسة منها زهاء ثلاثمائة في دمشق يدرك انها من عمل السلاطين والعمال وقليل من التجار واهل الخير ، وكان منهم من يتوخى منها ان تكون توليتها لبنيه من بعده ليعيشوا منها اذا صودرت املاكهم . بنى قليل من التجار المدارس لان الشعب كان يغنى في اغلب العصور في كبرائه ، فلم يكن شأن في مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير ارباب الدولة او من كان يعد في جملتهم ، وكان سائر الناس يحاذرون ان تنشأ لهم شهرة في الثروة ، والثروة تتجلى في الدار والفرش والدابة واللباس وبذل المال لاقامة دور العلم وايواء اليتامى والمحاويج فكانوا يتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالب العمال ولا سيما في عهد المماليك فمن بعدهم . وكانت مصادرة اموال الناس أسهل شيء على الحكومات وقتل من يريدون استصفاء ارضهم وعقارهم وعروضهم من المباحات في نظرهم . ولذلك كان ذو الغنى كثيراً ما يدفن امواله في مكان مجهول من داره ودكانه . وربما خاف من زوجه وولده فكتم عنهم ما يملك ، وقد يموت وتبقى دفينته مجهولة حتى يجيء بعد دهر طويل من ينبش الارض او الجدار ويعثر بالعرض على ما جمعه ذاك الغني المحروم .

وقلّ ان رأينا جماعة اتفقوا على إقامة عمل من هذا القبيل يفتخر به اللهم الا قليل من المساجد ، ولو فعلوا لامنت اعمال الجماعات من اعتداء المعتدين اكثر من عمل الافراد ، ولما استصفيت واستحل هدمها او تغيير خططها ومعالمها من لا يخافون الله ولا عباده ، ولجاءت ممثلة للعظمة الحقيقية في الامة ، على نحو ما قامت البيع والاديار والمدارس في القرون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الوسطى بالغرب ، بارشاد رجال الدين من كرادلة واساقفة وقساوسة ، فكانوا يجمعون قليلاً من صدقات الملوك والاغنياء والفرسان والشعب ، فيجيء مجموعها عظيماً يدار بايدي هيئة منظمة على كل حال ، ويخطون خطة لا يخرج عنها الخلف الا قليلاً . وقد بدأ المسلمون في هذا القطر بانشاء مدارسهم في القرن السادس وانتهوا في القرن التاسع فجاء بعدهم من ينسفها واحدة تلو الاخرى فتداعت واكلوا اوقافهـا فأخرجوها عن الغاية الشريفة التي وضعت لها .

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

نعم عمروها في ثلاثة قرون فعجز المخربون عن تخريبها في اربعة ، ولولم تكن اكثرها من مال محال مشروع قصد بها وجه الله وجلب الخير المحض للامة ، ولو لم تكن بلغت الغاية في إحكام الهندسة ومتانة العمارة ، ولو لم يزبروا على الحجر في الاكثر ما وقفوه عليها من الاوقاف الكثيرة ويدونوه في سجلات مخلدة يتعذر تبديلها ، لما طال عمرها كل هذه المدة وقد تعاورت عليهـا المصائب السماوية والارضية والمصائب الارضيـة أدهى وأمرّ .

فإذا كان هذا حظ المدارس والجوامع فما بالك بغيرها من المصانع . وكم ادركنا وادرك آباؤنا واجدادنا في هذه الديار من أثر بديع سطت عليه يد خرقاء لنسل حجارته . وكم من كتابة تاريخية عفى اثرها وقطعت ووضعت في اساس الميضآت جهلاً وغباوة او عن قصد وعمد . ولطالما ذكرنا والمعاول تهدم في المآثر المدهشة في قطرنا المحبوب ما قاله القـاضي ابو يعلى المعري وقد اجتاز ببلدة شيزاث ظاهر معرة النعمان والناس ينقضون بنيانها ليعمروا بها موضعاً آخر فقال :

مررت برسم في شيزاثَ فراعني به زجل الاحجار تحت المعاول
تناولهـا عبل الذراع كأنما رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
اتتلفها شلت يمينك خلهـا لمعتـبر او زائر او مسائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم ار احلى من حديث المنازل

للاثر القديم من الوقع في النفس ما ليس للاثر الحديث ، فإن الاول يذكر بامور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كثيرة . يذكر بمجد السلف وياديهم البيضاء وارادتهم الصحيحة ، يذكرنا بان فلاناً الذي تحترمه الامة بنى ذاك المصنع وتلك الدار ، وان فلاناً العالم درس هنـاك او كان يألف المكان الفلاني . وكم من أثر تاريخي او مصنع من مصانعنا نمر به دون ان نحفل بما فيه من عبر ولو كنا على شيء من مدنية أجدادنا ما زهدنا هذا الزهد البشع في تراثهم ، ولو اقتبسنا المدنية الحديثة بمحاسنها ومساويها لرأيتنا أسرع الى التقـاط آثار الجدود والاحتفاظ بها من الماء الى الحدور . لا تستطيع امة ان تقطع الصلة بينها وبين ماضيها خصوصاً اذا كانت ذات غابر عظيم كغابر الامة العربية قام على أساس متين ، وتقاليد جميلة ، ومقدسات متسلسلة ، اما ونحن لا نرقى بدون القديم والاخذ من نافع الحديث ، فواجب العقلاء ان يفكروا في أقرب الطرق الى بلوغ هذه الغاية وهذا لا يتم بغير احياء دور العلم ومعاهد الفضل ، واحياؤها موقوف على قليل من العناية .

ليس للمدرسة الحديثة التي ننشئها اليوم تلك النضارة ، ولا تتجلى فيها معاني الحسن والاحسان التي نشعر بها ونكاد نلمسها في المعاهد القديمة ، مثل مدرسة ضيفة خاتون رحمها الله فانك اذا رأيتها تمثلت أمامك صفحة من صفحات تاريخ هذه الامة المجيد . تمثلت بيت بني أيوب وأفضالهم على ربوع الشام ، وكفى بهم وبصلاح الدين من حسنة عقم الدهر ان يلد مثلها . كثير من المصانع بناها الملوك بالسخرة وارهاق الرعية ، وإعنات الاسرى والمعتقلين ، ولم نقرأ في تاريخ ان احداً من آل البيت الصلاحي عمّر مدرسة او جامعاً او مستشفى او رباطاً من مال مشبوه ، او سخرة ممقوتة ، فأكرم وانعم بكل فرد أصيلاً كان في هذا البيت الشريف او دخيلاً عليه .

أيها السادة : ان بلاد الشام من عريشها الى فراتها ومن جبال طوروس اوالدروب الى البادية مملوءة بآثار مختلفة وعاديات مدهشة بقيت من عهد الحثيين والكنعانيين والسريان والرومان واليونان والعرب والفرس وغيرهم من الامم العظيمة ، منها ما هو تحت الارض ومنها ما هو فوق الارض ، اذا حافظ كل واحد منا على ما تطول اليه يده ، وعُنيت الحكومة بالاشراف عليها إشرافاً حقيقياً ، كما فعلت مصر وتونس مثلاً ، يستفيد القطر الشامي بعد مدة زيادة على استفادته المعنوية من هذه العاديات استفادة مادية . تصبح بلادنا بلاشك متحفاً كبيراً يؤمه السياح لرؤية آثارها ومصانعها . وليست آثارنا عبارة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن المشهور منها فقط اي البتراء او وادي موسى وجرش وبعلبك وتدمر وغيرها . ان آثارنا مبعثرة في كل مدينة ، ماثلة في كل قرية ، اذا أحسنا تعهدها وأصلحنا ماتداعى منها ، استفدنا منها فاستخدمناها فيما أنشئت له وضممنا بها شملنا ، وحافظنا بها على مقدساتنا ، وكانت مجلبة الغريب الى ديارنا للربح . قال سوبرنهيم : ان عدداً عظيماً من مصانع حلب يرد الى زمن المماليك والعثمانيين وماعدا الجوامع الكثيرة مثل جامع الاطروش والطون بغا والطواشي ومناراتها المختلفة الهندسة — وبفضلها تذكر حلب بصورة القاهرة في هذا المعنى — فان حلب قد احتفظت بالمستشفى الجميل الذي بناه ارغون سنة ٧٥٥ وبكثير من المخازن والخانات والحمامات والدور والسلسبيلات وفي هذا المستشفى افاريز ونقوش من أجمل مانقش النقاشون تزينه فتجعله بهجة للناظرين ، ومدينة حلب غنية بمصانعها الجيدة الهندسة ومنها العسكري والديني والمدني وكلها مما زبر عليها من الكتابات مادة واسعة لمن يريد ان يتصور اصول الهندسة لا في حلب فقط بل في شمالي سورية . وذكر الاثريون ان منارة جامع حلب من أفضل آثار الهندسة الاسلامية .

عمر أهل الخيرات من سلف هذه الامة هذا القدر العظيم الذي نعجب به من معاهد التعليم الديني دع المساجد والجوامع ، ولو كتب البقاء لبعضها لاغنت القوم بمعارفها ونشرت النور بينهم . وكانت المدارس والجوامع في تلك القرون المظلمة في الغرب وهي مستنيرة في هذا الشرق والمتكفلة بتعليم الناس واخراجهم من الامية ، وكان لمعظم المدارس والجوامع كتاتيب مرتبطة بها وخارجة عنها لتعليم الاطفال تؤهلهم لتلقي دروس المدارس والجوامع ، ولا نغالي اذا قلنا ان عدد الأميين كان في تلك العصور أقل مما هو الآن في هذه الديار ، ولو اطرد العمل اطراده في مدارس الغرب مثلاً لاصبحنا في هذا القرن والأميون أقل مما هم في بلاد المدنية الحديثة .

ولكن الجهل قضى على تلك المدارس واكل المتولون أوقافها فخربت وتغيرت معالمها . وكم من وقف اليوم يستمتع به النظار عليه ويصرفون ما وقف على الخير على شهواتهم بدون محاسب من ذممهم ولا رقيب من أصحاب السلطان ، لو كتب لهم ان يأكلوا منها بالمعروف ويصرفوا حقوق تلك المعاهد او بعض مغلها على رمتها واجراء الرزق على ساكنيها والدارسين فيها لأتت بثمرات جنية ، ولما اكلوا في بطونهم النار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وركبوا متن العار والشنار . وكم من بيت كان موسوماً في القديم بالعلم والتقى خلف من بعد السلف خلف عبثوا بالحرمات : استحلوا أموال المدارس والمعابد ، فدثر البيت وانقرضت الأسرة،وذهبوا وما يملكون جملة ، لم يُرحموا لانهم لم يَرحموا . ضبطت الحكومة السابقة اكثر اوقاف الملوك والسلاطين وكان ريعها كثيراً جداً في هذه البلاد فلم تصرفها فيما خصصت له ، ولم تنجح في الغاية التي توختها منها، واستقل بعض ارباب النفوذ بالاوقاف التي اؤتمنوا عليها او انتهت اليهم بحكم الوراثة فأساؤا الاستعمال الا من عصم الله . فالسبب اذاً في خراب مدارسنا الجميلة سوء ادارة الحكومات السالفة وعبث المتولين عليها ، واخراجها عما وضعت له من عمل الخير بصنع اولئك الذين يعدون انفسهم في جملة حماة هذا المجتمع وهم اعدى عداته .

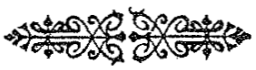

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net